إطار المذهب الإنساني

بقلم جوليان هكسلي

ترجمة مرسيس عوض

في الفصول * الباقية من هذا الكتاب ، يشترك خمسة وعشرون عالما مبرزا في عرض موضوعات اختصاصهم كما تبدو داخل اطار افكار المذهب الانساني . ولكن قبل ان اترك القاريء ليستمتع بمعالجتهم للمشاكل التفصيلية ، من اقتصاد وعلم اخلاق ، وموسيقى وعلم اجتماع، ومن تربية وتعليم وفسيولوجية الخ ، يجب علي أن احاول ان امهد الطريق ، مهما كان هذا التمهيد قاصرا وناقصا ، باجمال ما ارى انه وجهة النظر الانساني فيما يختص بثلاث نواح من النشاط الانساني العظيم الذي يتجاوز فيه الانسان الانشغال المادي في كسب الرزق واعني بها الفن والعلم والدين .

واني استعمل هذه المصطلحات بمعنى واسع ـ فأستخدم مصطلح الفن ليشمل كل تعبير منظم عن التجربة في قالب ذي اهمية ودلالة ، وفعال من الناحية الجمالية ، والعلم بمعنى كل المعرفة والعلم المنظم ، كما استخدم الدين ليشمل سائر انظمة المعتقدات والاخلاق التي تعني اساسا بمشكلة المصير .

وهذه الانواع الثلاثة من النشاط متشابكة ومترابطة . ولكنها مع هذا متميزة أساسا عن بعضها البعض ، فهي تؤدي وظائف نفسية ـ اجتماعية مختلفة .

ويكاد الفن ان يكون صنعة قاصرة على الانسان ينفرد بها . يكاد يكون وان لم يكن تماما . فطائر الفردوس الذكر bowerbird الذي يعيش في استراليا ، يظهر تفضيلا واضحا من الناحية الجمالية « لالوان مختلفة ، وأنواع مختلفة من الاشياء عند بناء تعريشته » . بل ان بعض افراد هذا الطير يقوم بطلاء الجزء الاسفل من تعريشته بمادة الخضاب الصابغة . واذا توفرت لدى الشمبانزي « والفيلة فيما يبدو » المواد المطلوبة ، نجد انها تستمتع بانتاج لوحات الرسم التي تظهر احساسا اوليا وبدائيا بالتصميم والنظام . ولكن مثل هذه الامثلة نادرة بين الحيوانات في حين ان الفن عند الانسان ـ في صورة او اخرى ـ ظاهرة تشمل ربوع العالم كله ، وتلعب دورا هاما في سائر انواع المجتمع الانساني وعلى كل مستويات التطور الانساني .

واني اترك للفلاسفة وعلماء الجمال مهمة تعريف الفن . فانا معني بوصفي مؤمنا بالمذهب الانساني ، بالمسألة المحددة الملموسة المتعلقة بوظيفة الفن ، او بالمسألة الملموسة الاكثر تحديدا المتعلقة بدور الفنون المختلفة في المجتمعات الانسانية المختلفة . ويجب قبل كل شيء ان نذكر انفسنا انه من ناحية علم تطور الكلمات ليس هناك شيء اسمه الفن . والفن ليس كيانا قائما بذاته ، تماما كما أن الحياة ليست كيانا قائما بذاته . فهو كلمة ومصطلح عام مريح ، ولكنه يستخدم في اغلب الاحيان ليشمل نوعا معينا واسع المدى بعض الشيء من النشاط الانساني ومنتجاته . ومن المستحيل تحديد هذا النوع أو مداه على وجه الدقة . وسأستعمل هنا كلمة الفن لتشمل التنظيم الفعال للتجربة في قوالب متكاملة لها دلالتها العاطفية ، وتبعث على الرضا من الناحية الجمالية . ويشمل هذا جانبا من ممارسة النشاط وشيئا من منتجاته مثل الرسم والنحت والادب والدراما . والرقص والاحتفالات التي تتضمن الطقوس والشعائر ، والموسيقى والعمارة . ولكن الفن بطبيعة الحال ينزلق ويتحلل الى لا فن كما يتحلل الضوء الى الوان الطيف وهو يمر في منشور كل أوجه النشاط هذه . فالادب يتدرج حتى ينحدر الى اعلام مباشر ، والى دعاية ، والفن البصري ينحدر الى الزخرفة من ناحية ، والى الاعلان من ناحية أخرى ، والدراما الى مجرد تسلية ، والشعائر الدينية الى استمساك بالرسميات والمظاهر التي لا معنى لها . والرقص الى وسيلة لتزجية وقت الفراغ ، والعمارة الى مبان نفعية ، وغير جمالية تماما في بعض الاحيان . وبالطبع أيضا لكل فن تحليله الضوئي الى ألوان الطيف الخاص به الذي يتراوح بين الرديء والحسن . ومن المستحيل ان يتوفر فن حسن دون شيء من الادب الرديء ، ودون كثير من الادب غير المكترث .

وأجدني أقول ان التميز الجوهري في الفن يتلخص في أنه يوفر خصوبة كيفية في الحياة عن طريق خلق تنوع في التجربة الجديدة . ويستطيع الفن أن ينقب عن الموارد العاطفية في الشخصية الانسانية التي يجوز ان تبقى بدونه من غير استعمال اما من الناحية الفردية او الاجتماعية ـ وهي مستويات مظلمة من الاحساس الشعوري واللاشعوري التي تشكل نوعا من القوة الدافعة ، والتي تحدد السعادة . والفن عملية امتداد لذواتنا خلال حساسيتنا وخيالنا الى شيء لم نصل اليه من قبل . هو عملية اكتشاف لانفسنا وللحياة (*) . والفن يساعدنا في تمثيل التجربة التي تمدنا بها حواسنا وعواطفنا . وهو جزء ضروري في نظامنا القائم على العلاقة بين النفس وعملية التحول الغذائي . بل انه كما نغذي أجسامنا فنحن بحاجة كذلك الى تغذية الخيال ومساندته . ويستطيع الفن ان يساعدنا بقوة في هذا . واذا تصورنا عالما يختفي فيه الفن ، فستصبح الحياة فيه غير محتملة .

ولكن على الرغم من أن الفن بوجه عام عملية اختلاف وتكاثر في التنوع الا أنه بوجه خاص على الدوام عملية تكامل وتركيب . وأي عمل فني ، مهما صغر شأنه ، يؤلف بين عدد من العناصر المنفصلة (والتي تبدو متضاربة أحيانا) ، ويجمعها ويصيغها في وحدة عضوية .

ويستطيع الفن أن يترك أعمق الاثر في عقول الناس . فالشعر أو الرسم او الموسيقى تحمل لكثير من الناس احساسا علويا ورؤيا ورؤية مجلوة . واني أحب أن أذكر ان التاثر بلغ ببرتران رسل وهو طالب في جامعة كامبريدج مبلغا عند سماعه لاول مرة قصيدة بليك (النمر) التي ألقاها على مسمع صديق له وهما يرتقيان درج الكلية لدرجة أنه تعين عليه ان يستند الى الجدار حتى لا يتهافت او يخور . ويمكننا في المسرحية ، كما يقول أرسطو ، ان نتطهر بوساطة « الشفقة والخوف » ، أو أن تتملكنا عاطفة جماعية قوية ومحررة . وقد وجد كثير من الناس أن اول زيارة لهم للمسرح كانت ايضا العامل في دخولهم الى اسلوب في التجربة جديد وطاغ . ولسنا نحن على ما كنا عليه تماما بعد قراءة « الحرب والسلام » لتولستوي . وتستطيع رباعيات بيتهوفن التي عزفت بعد موته أن تنقلنا الى عالم آخر ، وأن تحررنا من منطقة أخرى للوجود .

---

* راجع العدد الماضي .

(*) هذه العبارات المدهشة مقتطفات من كتابات سمح لي أن أقوم بالاقتباس منها (ج. هكسلي).

هذه هي المسالة . الفن يفتح ابواب ذلك العالم الاخر الذي فيه يتجاوز العقل والكيف حدود المادة والكم . وفي بعض الاحيان نعرض عن الفن وندفعه في احتقار على انه هروب من الواقع ، ولكننا جميعا بحاجة الى الهروب . واذا وضعنا جانبا حاجتنا في العالم الحديث الى الهروب من ملل الروتين وسقمه ، ومن حياة المدن التي هي على قدر من الآلية اكثر مما ينبغي ، فهناك الحاجة الدائمة التي تنتشر في ربوع العالم للهرب من قفص الحاضر الراهن والعمل الذي تقضي علينا الضرورة بقضاء الجانب الاعظم من حياتنا فيه ، وان نهرب فوق كل شيء من سجن ذواتنا الوحيدة والمحدودة .

والسؤال الذي ينتظر ردا هو « أين نهرب ، وكيف نهرب ؟ » فنحن نستطيع ان نهرب الى أسفل عن طريق الشراب أو المخدرات أو الانحلال. ولكن ليس هذا أمثل طريق . أو يمكننا أن نهرب هربا جانبيا عن طريق الالعاب الرياضية ، أو تزجية وقت الفراغ أو التسلية . وهذا مرغوب فيه بل وضروري في واقع الامر ، داخل حدود واسعة . أو يمكننا أن نهرب الى فوق الى عالم جديد (تذكر العنوان الذي اختاره بليك « المسافر العقلي ») يشمل اقطارا جديدة من الحياة ، ومستويات جديدة من الوجود حيث تتصل بشيء أكثر بقاء وديمومة ، وأبعث على الرضا ، وبمعنى ما حقيقي ، أرفع مما نجده في عالم الاحتياجات المادية والروتين اليومي .

والانسان ، بحكم طبيعته بالذات ، يملك امكانية ـ بل في واقع الامر ضرورة ـ ان يحيا حياته في عالمين على مستويين مختلفين من المعنى: عالم المادة والعمليات الميكانيكية ، وعالم العقل والعمليات النفسية ـ الاجتماعية . وعالم الذهن ، بالمعنى المحدد للكلمة ، عالم يتجاوز حدود المادة ، وفيه نفلح في الهرب من العالم المادي ، وما يتصل به من مقتضيات الكم عن طريق تجاوزه الى نوع من التركيب الاعلى الذي تنتظم فيه عناصر وجودنا الكيفية في صور وقوالب فعالة . وفي ضوء المذهب الانساني التطوري يظهر الانسان وهو يكافح شعوريا أو لاشعوريا ، لخلق مناطق أكبر من عالم العمليات الذهنية الذي يتجاوز حدود المادة ، كما يظهر الانسان وهو يسعى حثيثا في ألم نحو ولوج أكمل داخل مناطقه التي تبعث على الرضا .

ومن ناحية سير العملية الفنية ، فان أي عمل فني يترك أثره بنقل المعاني المتعددة في تركيب واحد . وغالبا ما يكون الايحاء ، لا محاولات التوليد أو التصريح الجامد الدقيق ، أفضل طريق لنقل المعنى كما أوضح ذلك جومبرتش في كتابه « الفن والوهم » وقد يكون للايحاء فاعليته على اساس التجربة المنسية منذ أمد طويل ، بل حتى على أساس التجربة المبكرة المهضومة والممثلة لاشعوريا ، أو على أساس تداعي المعاني الذي تعيه الذاكرة ، أو عن طريق الرمز القوي أو التصميم الفعال . وقد ينقل التعدد في المعنى بوساطة عناصر بمفردها في العمل الفني ـ ولنذكر قوى الترابط التي تنطوي عليها كلمات أو عبارات في شعر عظيم مثل قصيدة بليك « النمر » ، او قصيدة كولريدج « كوبلاخان » او شعر تراهيرن الذي فيه يقول : « كان القمح لألاء خالدا » ، وقوى الترابط التي تتضمنها شخصية واحدة في مسرحية مثل هاملت لشكسبير ، وربط العناصر المفردة بمعانيها المنفصلة في نموذج كلي متعدد الدلالة كما هو الحال في الانشاء التصويري العظيم مثل لوحة « مدرسة أثينا » لرفاييل، او الانشاء الموسيقي العظيم مثل مقطوعة باخ B. Minor Mass او رواية عظيمة مثل « الحرب والسلام » لتولستوي .

ويستطيع الفنان أن يستخدم الافكار الذهنية ، والمفاهيم الاخلاقية ضمن المواد الخام التي يقوم بتنظيمها ، وبهذا يحول العقل والاخلاق الى فن ، ويضفي الفنان على عمله الفني بعدا أكبر .

وفي الرسم يكفينا ان نفكر فقط في الخلفية الفكرية للوحة ميكلانجو « خلق آدم » والربط بين فكرتي الامومة والقداسة في صور العذراء وطفلها ، وفي واقع الامر ان كل استعمال فعال للرمز والايكونولوجيا

صدر حديثا

تأمّلاتٌ وجُودِيّة

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

- لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل
- خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .
- مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلكة الجفاف الاكاديمي .
- كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

الثمن ٢٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب

(الرموز التي تتضمنها الايقونات الدينية) شائع ومتداول. لقد ازدهرت التراجيديا الافريقية ونبتت في أرض الافكار والمعتقدات الشائعة المتداولة. وتدين الكوميديا الالهية لدانتي بالفضل في عظمتها الطاغية للاطار الفكري القوي ، والمنظم بطريقة جميلة ، الذي تستند الكوميديا الالهية اليه .

ولن يكون في امكان الفنانين الصغار أن ينظموا هذه العناصر غير الجمالية في وحدة جمالية ، كما ان عملهم لن يرتفع فوق مستوى التبشير أو الدعاية أو الاخلاق او مجرد النقل والتمثيل الحرفيين . ولكن الفنان الجيد يستطيع ان يدمجها في كل اكثر خصبا في بوتقة خياله الخلاقة (*) .

ورغم كل ما في تصميم الكنائس المسيحية على هيئة صلبان من مغزى رمزي وايدولوجي ، الا أنه ليست له أية ميزة جمالية خاصة . ولكن مشيدي الكاتيدرائيات والاوبرا العظام في القرون الوسطى ، استخدموا هذا التصميم للحصول على نتائج أشد ما تكون قيمة من الناحية المعمارية ، لم يكن ليستمتع بها العالم أبدا بأية طريقة أخرى ، لو لم يتم تنظيم النماذج المجيدة للحيز المغلق عند تقابل جناح الكنيسة بصحنها وبالمكان المخصص لكورس المرنمين . ولان الرموز والافكار تشكل مشكلة ، فهي تستطيع تماما كما تفعل مشاكل المادة أو المكان أو الموقع ان تكون تحديا منشطا للفنان سواء كان مهندسا معماريا او رساما .

ولا تزال الفكرة القائلة بأن الفن يتعادل مع الجمال ، بطريقة ما ، شائعة ، او انه قاصر على خلق الجمال ، رغم ان زيف هذا الزعم قد اتضح في أغلب الاحيان . فالفن يخلق المغزى ، المغزى الفعال من الناحية العاطفية والجمالية . والجمال من ضمن نتاجه ذي المغزى ، مما يجعل الفن يزيد من مستودع الجمال في العالم . ولكن الجمال ليس نتاجه الوحيد او حتى نتاجه الرئيسي . فهناك مجالات اخرى كثيرة يمكن حفظ الجمل فيها أو خلقه من أجل ان تستكمل الحياة الانسانية .

واذا نظرنا الى المسالة من على بعد نظري طويل ، فيمكن القول بأن الفن والعلم كليهما في تقدم ، وان اختلفت طرق هذا التقدم . ففي حين أن الفن يزيد الخصوبة الكيفية والمدى الخاطىء للتجربة الانسانية والبصيرة الانسانية ، نجد ان العلم يزيد من حجم وعمق المعرفة، وكفاءتها الفعالة وتنظيمها الاحسن كما انه يوسع منطقة الفهم الانساني ، ويزيد من قبضته .

ونتيجة الفن هو خلق الاعمال الفردية التي يختلف كل منها اختلافا كيفيا عن بقية الاعمال كما يتضمن تنظيما خاصا للتجربة . وقد يكون العمل الفني بالذات غير محدود بزمان ، بمعنى أن يستطيع الناس ان يستمروا في الاستمتاع به رغم انقضاء الوقت وتغير الظروف . أما العلم فيقوم على التراكم والتعاون أساسا . ويضيف العالم شيئا جديدا الى كل تام ومتسع ، تكون وحدته أكثر أهمية وأجل خطرا من الصفة الفردية التي تتسم بها الاضافات الفردية التي تندمج في اطار وحدة هذا الكل . ولكن الفن ليس تراكميا او تعاونيا بهذه الطريقة. والفن بالتعبير التطوري عملية تفرعية تزيد من الاختلاف والتنوع . وفي تطوره التاريخي ، يلعب الفن نفس الدور بعض الشيء الذي يلعبه الاشعاع التلؤمي والتنوع في التطور البيولوجي . فكلاهما يؤدي الى استفادة أكمل للموارد والفرص الكامنة في البيئة ـ وتكون الاستفادة في حالة الاشعاع التلؤمي من الموارد والفرص المادية التي تتوفر لعملية التحول الغذائي العضوي في البيئة الطبيعية . اما في حالة الفن فتكون الاستفادة من الموارد والامكانيات العاطفية الجمالية التي تتوفر لعملية التحول الغذائي ـ النفسي في البيئة بأسرها سواء كانت طبيعية أم ثقافية . هذا هو أهم جانب تطوري للفن . ولكن الفن تقدمي وذو وجهة بطرق وأساليب أخرى . وهو تقدمي في حصيلته . وفي الفصل الذي كتبه ستيفن سبندر نجده يناقش الحقيقة المذهلة التي أكدها مالرو لاول مرة . وهي أن الحصيلة الكلية للفن الماضي تتوفر لدينا اليوم لاول مرة في التاريخ لكي نستمتع بها في الوقت الحاضر . ويتقدم الفن من الناحية الفنية فالرسامون مثلا ، اما ينشئون باتباع اساليب ماضية ، واما ان يكون موقفهم رد فعل ضدها ، والبحث عن تكنيك جديد . والفن تقدمي بالضرورة بمعنى ان الناس بمضي الوقت لا يتعلمون تحويل الجوانب الجديدة للتجربة الى فن فحسب (كما فعل رسامو عصر النهضة بالحيز وزاوية النظر او كما يفعل الفنانون المعاصرون الان بالرسم التجريدي او الفعل) بل ان يكتشفوا كيفية تنظيم أكبر عدد من الاجزاء المختلفة التي تتألف من الفكر والعاطفة كما تتألف من التكنيك في عمل واحد يشكل كلا ذا مغزى ومدلول . وبمعنى آخر ، ان يكتشفوا نماذج عليا من التنظيم الجمالي . والسيمفونية بمعنى ما حقيقي ، أرفع كعمل فني من أغنية أو مارش عسكري وكنيسة الساحة الصغيرة في يادوا التي زخرفها جيوتو افضل من اية لوحة مرسومة بمفردها من رسوم كهوف لاسكو ، كما ان الكوميديا الالهية لدانتي ارفع شانا من المقطوعة الشعرية المعروفة بالسوناتا . وان الحرب والسلام لتولستوي : أعلى شانا من قصة قصيرة لموبسان او حتى من دون كيشوت .

وهناك بطبيعة الحال داخل كل نوع او درجة من التنظيم كل مدى ممكن فيه تدرج من الحسن الى الرديء . تماما كما ان هناك كل مدى ممكن من الانواع والسلالات الناجحة الى الانواع والسلالات غير الناجحة داخل الدرجة الواحدة من التنظيم البيولوجي مثل الثدييات او الزواحف. ولكن هذا لا يدحض الحقيقة التي تتمثل في كون بعض درجات التنظيم الجمالي ، أعلى ، من غيرها ، تماما كما يكون تنظيم الثدييات ، بالمعنى العلمي المحدد ، أعلى من تنظيم الزواحف . ومن الواضح في كلتا الحالتين أن تقدما حقيقيا قد أحرز .

ومن الواضح ايضا في بعض الفترات مثل العصر الفيكتوري ان الفن الرسمي او الشائع والمقبول بين عامة الناس يميل الى ان يصبح عاديا وعاريا عن التفوق او غير ذي بال ، وهذا بدوره يولد حركات في الرسم باسم ما قبل الرافيلية ، في انجلترا . او انها قد تحطم قشرة التقاليد وترسي اساس تيار للتطور جديد ومثمر مثل المذهب التأثيري في فرنسا .

ويدعم المتمردون عادة مركزهم بتكوين مجموعات تحت يافطات ذات طابع محدد وان تراوحت درجة تحديده ـ مثل ما قبل الرفاليين، والمدرسة الباربيزونية ، وما بعد التأثيريين ، والتكعيبيين، والسرياليين ، ولكن يقوم بالدور القيادي دائما فنانون خلاقون افراد من ذوي العبقرية والتصميم مثل ـ جيوتو ، وميكلانجلو ، ورامبراندت ، وكونستابل، وتيرنر ، ومانيت ، وفي وقتنا الراهن بيكاسو ، وكل ، وهنري مور .

وليس هناك كبير نزاع في أن الكثير من التطورات في الفن في البلاد الغربية منذ ١٩٤٥ يعكس او يعبر عن العدمية المتجلية في فترة ما بعد الحرب ، وتناثر أجزاء حياتها بين الاحباط والرجاء ، وفوضاها الفكرية، وخيبة أملها الاخلاقية (ونشأة الفلسفة الوجودية هي أحد أعراض نفس الغثيان المرضى) . ونفس مجرى الحوادث المختلف في البلاد الشيوعية هو مثال ايضا على أثر الافكار والمعتقدات والمواقف على الفن . والاثر في هذه الحالة هو أثر اللاهوت المتزمت القائم على المسلمات ، والذي يعمل بمقتضى أساليب القسر والتسلط بل الاضطهاد الصارخ الغاشم أحيانا . ولكن انتشار أفكار المذهب الانساني سيعمل على التئام الصدع بين الفن الخالق وبيئته الاجتماعية .

وللفن عدد من التطبيقات في حدود وظيفته الهامة الشاملة . فالفن يستطيع ان يلعب دورا تعليميا هاما في العملية التربوية وكعملية تربوية . ومعظم الاطفال الصغار ـ بما فيهم على وجه خاص اولئك الذين تخلو عقولهم من الاستعداد الفكري او الميكانيكي ـ يستطيعون الاستمتاع

---

* تساعدنا الكتب مثل « النظر الى الصور » تأليف كنث كلارك، طبعة لندن ، سري ، ١٩٦٠ ، و « الفن والوهم » تأليف جامبرتش، طبعة لندن ١٩٦٠ ، على فهم قدرة الفنان المبدعة الخلاقة . (ح. هكسلي).

بحياتهم ، (وما هو أهم من ذلك) ان يجدوا انفسهم ويحققوها بطريقة أوفى بوساطة صورة من صور ما يطلق عليه بنوع من الفخار والخيلاء « التعبير الخالق » ، وخاصة ربما في الرسم والصلصال . ويستطيع التعبير الخالق أن يساعدهم في تطوير شخصياتهم الصغيرة بطريقة أكثر تكاملا من الناحية العاطفية ، كما يستطيع ادخالهم في تجربة متسعة للعالم واكتشاف امكانيات داخلية جديدة في ذواتهم . انه لمن اليسير جدا استغلال عدم الثقة والقصور الناجمين عن احساس المراهقين بأنفسهم في تقييد حريتهم ومنعهم من النمو ، وفي طبع تعبيرهم بالطوابع والانماط التقليدية . ولكن باستعمال الطرق الصحيحة ، تستطيع الفنون الاستمرار في لعب دور هام خلال سنوات التربية والتعليم .

وعلى الرغم من أن « التعبير الخلاق » يبدو ضخما ومليئا بالخيلاء عند تطبيقه على الاطفال الصغار الا انه في واقع الامر سليم تماما . والفن برمته حتى « والشخبطة » في الكتابة و « التلطيخ » في الرسم اللذين يقوم بهما الاولاد والبنات الصغار ليس مجرد مخرج للتعبير عن الذات فحسب بل هو نوع من انواع الخلق ، وتكامل شخصي يفرضه الخيال على جزء من أجزاء تيار التجربة المتغير الزائل . وبهذا المضمون يمكن للفن أن يعمل كقوة محررة تهدف الى التكامل في المخلوق البشري المتطور .

وقد يحق لنا أن نفترض ان هذا المزيج من التحرير والتكامل هو الوظيفة الرئيسية لمعظم الفنون التي يمارسها الكبار كهواية أو كوسيلة للاسترخاء . وقد يميل هذا المزيج بالانسان الذي يفكر في ذاته نحو تعبير عن الذات فيقدم احساسا شديدا بالدلالة الشخصية . ولكن يبدو انه غالبا يقوم ببساطة على الشعور بالحاجة للتعبير عن تجربة ما ، ذاتية وقوية في الصورة الموضوعية لقصيدة او لوحة . ويتطلب تحقيق هذا (كما يعلم أي واحد شعر في شبابه انه مدفوع الى كتابة الشعر) مجهودا خلاقا خاصا . ولكن مجرد العملية التي يتم بها هذا التحقيق ـ مهما كانت ناقصة ـ توفر شعورا خاصا بالرضا .

وقد يكون للفن أيضا قيمة شفائية . فتستطيع ممارسة بعض الفنون ان تحفظ انواعا نفسية معينة من الاصابة بأمراض عصبية كما انها تستطيع ان تساعد على الشفاء من الانهيار العصبي .

ورغم ان المؤمن بالمذهب الانساني يبدي اهتمامه بتلك الطرق المتنوعة ، التي يمكن بها لما يجوز ان نطلق عليه اسم « الفن الهادي » ان يساعد على التطوير الفردي وعلى تحقيق الفرد لذاته ، الا ان اهتمامه الرئيسي يجب ان يتجه شطر الفن المحترف ، ووظائفه النفسية ـ الاجتماعية . كيف والى أي مدى يعكس الفن ، او يعبر عن فترة او شعب ؟ كيف والى أي مدى يساعد الفن على الخصب الثقافي والتحقيق الثقافي ؟ ـ وباختصار ما هو الدور الذي يلعبه في تطور الانسان ؟

من الواضح ان الفنون تتطور داخل منطقة معينة . كل فترة جديدة ، وكل جيل جديد يتطلب التغيير سواء شعوريا او لا شعوريا . واحيانا يتلخص التغيير أساسا في تطوير أكمل أو حتى في المبالغة في قدر اسلوب موجود او تقليد قائم . واحيانا يكون التغيير رد فعل ضد الاسلوب الموجود أو التقليد القائم ، مصحوبا بظهور أساليب ومواقف وتكنيكات جديدة تغاير ما سبقها مغايرة تامة . وأحيانا يكون التغيير مزيجا من الامرين (من التطوير ورد الفعل) . ويعطينا جومبرتش في كتابه الفاتن كثيرا من الامثلة . والفصل الذي كتبه ستيفن سيندر في هذا الكتاب بحث شيق في علاقة الفنان الفرد ببيئته الاجتماعية والايدولوجية .

ولكن هذا لا يعدو ان يكون عنصرا واحدا في المشكلة . وأنا أميل الى القول بأن أكثر اجابة شيوعا وعموما تجري على النحو التالي بعض الشيء : للفنان الفرد وظيفتان ـ وظيفته كخالق ووظيفته كمفسر . وهو كمفسر يترجم الترجمة المعقدة وذات صبغة عاطفية الى صور يمكن نقلها نقلا مباشرا . وبهذا فهو قادر على التعبير عما كان سيبقى لولده في طي الصمت دون سبيل الى التعبير عنه . ويشهد الفنان على تنوع العالم ومغزاه ، وعلى دواعي العجب فيه وجماله . ولكنه يشهد ايضا على فظاعته وقبحه . وقد تكون شهادته عن طريق التأكيد (تأكيد ما فيه من جمال) او عن طريق الاحتجاج (على ما فيه من قبح) . ولكن وظيفته، حتى حين لا يكون شاعرا بها ، هي تفسير العالم للانسان، وتفسير الانسان لنفسه . وهو من الناحية الاخرى كخالق يوفر تجارب تدعو للنشاط والتحفز كما تدعو للبهجة (ولنفكر في تيرنر أو سترافينسكي او أوضح مثل شيكسبير) . وللفن كنشاط اجتماعي جماعي نفس الوظيفتين الرئيسيتين . ولعله يجدر بي أن أقول ان الفن يستطيع ان يكون له هاتان الوظيفتان لان الاهمال أو التشويه يصيب الفن في بعض المجتمعات بل أنه يرفض كما هو الحال في اسبرطا القديمة . ولا يجب علينا ان ننسى ان المعمار فن ، او بعبارة اصدق وأصح ان الفن يلعب دورا ضروريا في المعمار سواء في تقسيم الارض او التصميم . ويستطيع فن العمارة بهذا المعنى الواسع ان يؤدي وظيفته الخاصة في التعبير عن الافكار والآمال الانسانية . ويستطيع المعمار الجيد ان يزيد من خصوبة الحياة الانسانية وخاصة حياة المدنية في حين أن المعمار الرديء يفقرها كما هو واضح بصورة لا تحتاج الى بيان في البلدان القبيحة الكثيرة واطراف المدن المملة غير الشيقة . والمسطحات المنبسطة أسفل الارض في عصرنا . وأهمية الوظيفة الاجتماعية للمعمار واضحة للمؤمن بالمذهب الانساني والمشكلة تنحصر في حث الموظفين ودافعي الضرائب للاعتراف بأهميته اعترافا عمليا .

ويجب أن نذكر أيضا أن الفن يتصل بالتصميم . والفن ضروري لتصميم الاواني الفخارية وأوعية الطبخ وصناديق البريد المقامة على عمدان ، وأقلام الرصاص ، والاواني الصينية ، والاعلانات التي تلصق على الجدران مثلما هو ضروري لنوع اللوحات والنحت . وواقع الامر ان بعض الاواني الفخارية هي أعمال فنية أفضل من الكثير من اللوحات . ورغم ان الدور الذي يلعبه التصميم أكثر تواضعا من الفنون الجميلة الا ان وظيفته الاجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها مثلما لا يمكن الاستغناء عن وظيفة الفنون الجميلة الاجتماعية . وفي المجتمع المحقق لاهداف الانسانية الذي يتصور المذهب الانساني اقامته، سيعطي الفن دورا كبيرا ـ ليجعل القطاع الهام ، ويشهد على خصوبة الوجود وغناه ، ويؤكد القيم في صورة ملموسة فعالة ، وان يوفر اعمالا فنية عظيمة تستطيع المجتمعات الانسانية ان تزهو بها كما تستطيع الانسانية خلالها ان تجد نفسها وتحقق ذاتها بطريقة أكمل وأوفى . ولكن قبل أن يمكن تحقيق أي شيء من هذا القبيل ، ستكون امكانيات الفن النفسية ـ الاجتماعية ، وأفضل طرق لتحقيقها بالفعل في حاجة الى دراسة عميقة .

(التتمة في العدد القادم)

فنـدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر